طبيب وأديب

فقدت مصر في العهد الاخير رجلين حري بتاريخ العلم والادب ان يدون ترجمتيهما في صفحاته. واعني بهما الدكتور حسن باشا محمود وابراهيم بك المويلحي . الاول عالم والثاني كاتب أو طبيب وأديب . ولد الاول في مصر سنة ١٨٤٧ م على ما نقل أحد انجاله ووالده من العرب النازلين في جوار الاهرام ولما ترعرع ظهرت عليه آثار النجابة فدخل القصر العيني ونال شهادته الطبية ثم بعثت به الحكومة المصرية الى المانيا فقضى فيها سنتين ثم انتقل الى باريز واحكم الطب علماً وعملا حتى اذا عاد الى القطر عين في وظائف مهمة مثل نظارة القصر العيني وطبيب الامير طوسون باشا وطبيب الخديوي اسماعيل وابنه توفيق ومفتش الصحة العامة . وانتدبته الحكومة في عدة مهمات نائباً عنها في المؤتمرات الطبية الدولية ورأس الجمعيات الطبية في مصر مرات وكان عضواً في عدة جمعيات طبية وعضواً في المجمع العلمي بمصر .

وكان على وفرة مشاغله كبير العناية بالتأليف والتعريب حريصاً على الاستفادة والافادة أميل في اعماله الى الجد على مايظهر من تآليفه محبباً الى الناس . كتب رسائل وكتبا طبية كثيرة نشر بعضها على حدة وبعضها في المجلات . واهم كتبه « الخلاصة الطبية في الامراض الباطنية » وهو كتاب لطيف الاسلوب والوضع سهل المأخذ ومنها « رسالة في الحيضة » وأخرى « نبذة في مدرسة الطب المصرية » و« رسالة في خلع المصم » و « كتاب في داء القفاع » و « كتاب في الاستكشاف العصري في الرمد المصري » و « كتاب الفوائد الطبية في الامراض الجلدية » و « رسالة في منافع مياه حلوان » و « مختصر في البواسير ومعالجتها وطريقة اتحدد » و « رسالة في حمى الدنج » و « رسالة في داء الطاعون البقري الساري » و « رسالة في وباء الهيضة » وغير ذلك . وظل يكتب الى آخر أيامه ولا يتكلف من نشر ما يكتبه في المجلات تعميماً للفائدة

أما ابراهيم بك المويلحي فقد ولد في أوائل سنة ١٢٦٢ هـ وهو من بيت معروف بالغنى والوجاهة اضطرته الاحوال بعد ان خسر ماله في المضاربات ان يستخدم في الوظائف على عهد الخديوي اسماعيل وكان يحبه ويأتمنه ويحسن اليه وقد قضى معه عشر سنين في نابولي كاتماً لاسراره وقضى نحو هذا الزمن في الاستانة . والذي يهمنا من أمره انه كان من أعظم النوابغ في الانشاء . وقد اكدنا من نثق بذوقه في البلاغة وعلو الكعب في الاطلاع على اسرار العربية وآدابها ان المويلحي في عصره كالجاحظ في عصره . ولا غرو فقد تأدب بكتبه وكان يحرص على دراستها والاستظار

بدررها ليله ونهاره . كتب المترجم به عن الامراء كتباً كثيرة ومقالات بحسب الحاجة والدواعي وتلون السياسة ومذاهبها كما كتب عدة جرائد منذ أول نشأته وآخرها مصباح الشرق ، ولو دام المصباح على لطافة اسلوبه وجودة الفاظه وتراكيبه سنين كثيرة لكان من أهم البواعث على ارتقاء ملكة البيان العربي ولصار العامة ممن يتوفرون على مطالعته اليوم ارقى لهجات من الخاصة متذقرون .

وبهذا عرفت ان طريقة المويلحي في الانشاء طريقة السهل الممتنع ساعده على الاجادة فيها انه لم يكن يكتب الا في المسائل التي له وقوف على أطرافها ليكون رأسآ في معانيه كما هو رأس في مبانيه . وكان مطلعاً كل الاطلاع على أحوال مصر والاستانة عارفاً تاريخ رجالها بحيث كانت هذه المواد له على خفة روحه ورشاقة قلمه مادة واسعة ليكتب على الطريقة الهزلية المعروفة عند الافرنج بالاوميريستيك على ان معظم ما كان يكتبه يمتزج فيه الهزل بالجد . وكان مجاسه عامراً بالفوائد الادبية والتاريخية والاجتماعية نادرة النوادر في نكاته آية في الاطلاع على الدخائل . استفاد اشياعه من لسانه اكثر من استفادتهم من قلمه . ولو وجد مجالا للعمل النافع وقدر امراء هذه الديار وكبارها ان يحسنوا الانتفاع بمواهبه كما ينتفع الملوك والامراء بنوابغ بلادهم في العادة لاشبه المويلحي بسمرك وكرسبي وغيرهما من رجال السياسة في هذا القرن ولما رغب في صرف الوقت في الجزئيات ولانصرف عنها الى الكليات لامحالة

انتقاد المقتبس

تتابعت كتب التقريظ والانتقاد علينا وها نحن نلخصها فيما يلي مكتفين بما ورد فيها من ضروب النقد . وفي مأمولنا ان نصلح مايمكن اصلاحه من وضع هذه الصحيفة وموضوعاتها على ألوان من حتى يجيء منها مايفيد ويروق بعون الله وتسديده . ورجاؤنا الى من أوتوا العلم الرجيح ورزقوا ملكة النقد الصحيح ان يقبسوا المقتبس من أنوارهم كلما عن لهم ذلك . ورحم الله من أهدى الي عيوبي

ولقد اختلفت آراء المفكرين والعالمين فمن قائل باختصار مقالات المقتبس ومن قائل باشباعها وتوفية كل مبحث حقه من الشرح . كما اختلفت المذاهب في اسلوب انشائه فمن قائل انه يصعب فهمه على غير المتعلمين أو دون الرجوع الى المعاجم كما قال بعضهم ومن مصرح ان لغة المجلات ينبغي لها على كل حال ان تكون أرقى من لغة الجرائد لان قراءها من الخاصة أو ممن يدانيهم وبرى الفريق الاول انه لابأس باستعمال

ما استعمله العرب من التراكيب أيضاً ويرده بعضهم ويفنده . واعترض بعضهم على استعمال الاشارات الجديدة مثل « ؟ » . وغيرها قائلين ان ذلك لايجدر الا بكتب الاطفال والنساء واستحسنها بعضهم وأراد الاكثار منها للافهام . ورأى بعض العلماء ضبط الكلمات المبهمة . وآخذنا أحد العلماء على كوننا لم نذكر ارتقاء الصحافة العربية للشيخ محمد عبده أيام كان يحرر الوقائع المصرية ويدير المطبوعات ويحتم على الصحف ان تلتزم تصحيح عباراتها أو توقف . كما عاتبنا بعضهم على اننا لم نذكر المعلم بطرس البستاني في عداد من نهضوا بالصحافة . واستنسب بعضهم نشر رواية في كل جزء لانه يتوقف عليها . لفت أنظارنا اكثر القراء وصرح عالم بان الروايات لايليق نشرها في المجلات العلمية التي تتوخى الجد والفائدة

وانتقدت مجلة الشتاء القراء اطراد المقتبس في اسلوبه الانشائي الجد البحت وارادته على إستعمال الهزل الادبي وقالت ان نكات الوهراني والتعاويذي لاتقوم مقام « النكتة الخفيفة » وآخذته على تجاوزه الحد في الايجاز في تلخيص مقالات الجرائد العربية وعلى ماسرى اليه من الغلط من ان سليم النقاش عم مارون النقاش هو الذي اتى بالتمثيل الى مصر . ولم تر مجلة الشتاء حكم ابن جزم جديرة بالايثار قالت ولو كانت من مأثور الكلام لابقاها ناموس بقاء الانسب في ذاكرة اهل العلم . ونقدت على المقتبس اهماله ذكر العادات الذميمة ونقائص المجتمع صراحة أو تعريضاً واطلاقه العنان لامثال « التماثيل الغريب » الخ

وكتب الينا أحد علماء دمشق يقول : استغرب المحققون ذكرك قصة المتنبي في باب « التماثيل الغريب » اذ لم يعلم ان للمتنبي اكثر من ولد أو ولدين على شهرة أحواله فما بيان المأخذ واما إصلاح الغلط . واذا قرأت ترجمته الى آخرها في ابن خلكان يتضح لك ذلك باجلى برهان . ثم ان مجلتك لايليق بها ان تعدل عن جادة الجد وخلو الغرض وقتاً من الاوقات فاستعمالك الالفاظ يشم من خلالها ريح التحريض والاستهزاء غير جائز مثل « الفقاقيع الفارغة » وما ذكرته في وصف الشعراء المحدثين عند بحثك عن دواء الارق . وباحبذا لو ضربت صفحاً عن « نفاضة الجراب » وان راقت الاكثرين لان الغاية تعليم وتهذيب وترقية عقل . قيل للامام علي كرم الله وجهه لو غيرت شيبك يا أمير المؤمنين . فقال : الخضاب زينة ونحن قوم في مصيبة . وكذلك نحن الآن في دور جد وعمل لادور هزل وفكاهة ...

وصحح لنا عالم اجتماعي في دمشق بعض اغلاط فقال : جاء في الصحيفة ٧٤ أمطرت رماداً فانكشفت لنا مدينتان رومانيتان كانتا مدفونتين والصواب ان يقال فتحت

للحال مدينتان رومانيتان كانتا مكتشفتين لان البركان غطى حينئذ المدينتين بالحمم والرماد ولم تكتشفا الا من عهد قريب . ومنها ماجاء في الصحيفة ٨٠ خلقوا أولادكم بغير اخلاقكم والصواب لاتكرهوا اولادكم على التخلق باخلاقكم الخ . ومنها في صحيفة ٧٨ الانجيل والمكاتبات والنصارى يقولون الانجيل والرسائل . ومنها في صحيفة ١١٠ التخبيز والصواب التمييز

ونختم هذا الفصل بقطعة من رسالة لصديقنا الامير شكيب ارسلان قصد فيها الدعابة الادبية واعذرين ان لم في فرصة اخرى بما نجود به قرائح المفكرين . من نقد هفواتنا قال الامير سامحه الله : وأنست في نفسك انشراحاً ونشاطاً، وقلة في كمية السوداء وانحطاطاً، يدل على ذلك في مجلتك فكاهات رويتها، ومداعبات اثرتها، واسجاع ملت اليها، متى كنت يامحمد مولعاً بالسجع عهدي بك لاتطيقه واذا مررت بالجناس ولو تثقل لك واقفاً رفسته برجلك واكبته لوجهه . وطالما نقمت علينا التسجيع، واقمت علينا من النكير بمدد انواع البديع، وعددت سجع الحمام، من قبل نجع الحمام، واعتبرت نفائس الجناس ، من وساوس الخناس ، فها انا ذا اسجع الآن ولا حرج علي منك ولا تثريب، واجنس وانت ساكت ساكن وهذا أمر غريب، فهل هداك الله الى الصواب الآن حتى صرت في « مذاهب المذاهب وطرق الطرق » أو هل نزغت بك نزعات جداد ، وجدت بك أهواء لم تكن تنتاب ، أو لعلك حصرت السجع والجناس في فاتحة المجلة لانها من المجلة كقاعة الاستقبال من البيت فلا بد فيها من مراعاة الامور الرسمية والسجع رسمي في المقدمات . . ولا عيب في هذه المقدمة الا هذا السمدان الذي في آخرها . لا تؤاخذني بالله عليك لي عندك ثارات ، ويصدري من « حاطة الجلجلان » حزازات ، وانت منصف فلا يذهبي ان يثقل عليك الحق كما يثقل على غيرك . . . أما ما استظرفت من روايات التناسل حتى تجاوزت الحد في الاحتراز في نقله فليس بتلك الدرجة فان الامثال كثيرة والمرحوم الحاج حسن عبدالله من خيام مرجعيون وعسى ان لا اكون « شرقياً في كثرة الارقام ، كان له من الولد وولد الولد مايربو على التسعين وهو والد محمد افندي الحاج حسن الشاعر الاديب . اما نصائح ابن حزم فقد ذكرتني بحكم ابن المقفع وان كان لاينكر ان هذا أعلى طبقة في الكتابة واما نكات الوهراني فلا بأس بها لكن يالخي سألت الله لمجلتك ان يدفع عنها آفات التطويل والتكرار ، وانت لم تقصر في تكرار ذكر الشعير مع الاشعار، ففي كتاب الوهراني الذي يخشى من وهر لسانه طلب للشعير مطول برسم البغلة وفي قصيدة التعاويذي اعاذنا الله من مثله كلام عن الشعير لاجل الفرس فهذا كثير على الشعير . . .